«موجز عن قواعد السلوك الانساني»

القلب : هو مركز العلم والعزيمة والاخلاق الفاضلة وهو أيضا مركز وسوسة الشيطان !!

قبل الخوض فى المحاضرات المتعلقة بالكتاب أيضا نذكر نبذة من قواعد السلوك الناتجة من الكتاب والسنة ، وقد تكلمنا فيما سبق عن استصغار العمل واستصغار الذنب .. وفى هذا الموجز نتكلم عن استكبار العمل واستكبار الذنب ..

فأن كلا من استصغار العمل واستكبار العمل آفة من آفات الشيطان التي يبتلى بها الانسان فكما ان استصغار العمل يفضى الى أن يترك الانسان أعمال الخير التى يزدريها ويحتقرها ويرتكب أعمال الشر التي يستهينها وهو بذلك لا يترك الخير فقط ولكنه يأثم قلبه باستصغار ما أمر الله به .. وأيضا لا تكتب عليه فقط السيئة التى بسبب ارتكاب المعصية ولكن الاستهانة بها لاستصغارها هو فى الحقيقة استهانة بالله «سبحانه وتعالى» .. كذلك استكبار العمل يعبر عنه الفقراء «بالعُجب» والعجب أيضا من وساوس الشيطان التى يبتلى بها الانسان فيستعجب من عمله ويستكثر عمله ويستعظم عمله .. وبذلك يكون له فى ذلك العمل لذة نفسانية .. فاذا صارت له فى العمل لذة نفسانية لا يثاب على ذلك العمل لانه لا يكون مقصودا «لوجهه تعالى» .. بل ان العمل الذى يكون مقبولا عند الله هو الذى أخلصت فيه بالنية .. فاذا كان يفخر بذلك العمل يأتى بالعمل من أجل أن نفسه تستلذ لأن يفعله أو لانه يراه مما يزيده جلالة أو مكانة عند خلق الله سبحانه وتعالى .. وهذا فى الحقيقة استعجاب ، أو يتباهى على الناس بعمله - هذا - هو معنى العجب !!

هو آفة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .. تمحو الفائدة من ذلك العمل الذى عمله وكذلك ترك المعصية فترك المعصية يجب أن يكون خالصا لله «سبحانه وتعالى» .. أما لو كان أيضاً للتباهى عند الناس أو لانه يريد أن يفخر على المذنبين والعاصين بانه لا يرتكب الذنب .. هذا هو فى الحقيقة العجب الذى يأكل الحسنات !!

اذن : كيف يتخلص الانسان من آفة العجب .. كما تخلص من آفة الاستصغار ؟ .. المستفاد من روايات أهل البيت «عليهم السلام» ومن سلوكهم : «أن الطريق الى ذلك أن لا ينظر الى العمل أو الى نفسه فى حد ذاته وانما ينظر الى ما هو فوقه» .

ولنضرب مثلا : لو أن انسانا أصابته شوكة فلا شك أن تلك الشوكة تؤذيه وتؤلمه - يحس بألمها .. ولكن لو بعد اصابته بالشوكة لدغه عقرب .. لاشك أنه ينسى ألم الشوكة يضمحل تماما ألم الشوكة من نفسه فان الألم الشديد الناتج من لدغة العقرب يسيطر عليه ويهيمن ، فلا يبقى مجالا فى النفس لتذكر ألم الشوكة ، مادام ألم لدغة العقرب موجودا عنده .. فالانسان اذا ما نظر الى أى عمل يأتيه مهما كان ذلك العمل قد يستعظم ذلك العمل ولكنه اذا نظر الى الاعمال الصادرة ممن هم فوقه في مراتب الايمان ممن هم أعلى منه درجة في الكمال لا شك أنه يستصغر ما يأتيه من الأفعال مهما كانت فى حد ذاتها عظيمة ، فاذا نظر أحدنا مثلا فى صلاته وقاسها بالنسبة لصلاة أمير المؤمنين «عليه السلام» أى شيء ينظر فى صلاته .. وماذا تساوى كل صلاته طيلة عمره بركعة واحدة من ركعات أمير المؤمنين «عليه الصلاة والسلام» ؟

لاشك انه فى هذه الحالة يضمحل ذلك الأثر النفسي .. يضمحل العمل بتمامه وكذلك مثلا اذا رأى نفسه ارفع من زيد أو انه وصل في الايمان أو في التقوى أو في مراتب الكمال الخلقي والديني مرحلة لا بأس بها عليه أيضا حتى يزيل العُجب من نفسه أن ينظر من هو فوقه ، فعندئذ يضمحل ما وصل اليه ..

ألا ترى أمير المؤمنين «صلوات الله وسلامه عليه» ولاشك انه أمام الموحدين .. امام المتقين قائد الغر المحجلين ، رأس المؤمنين .. مفترض الطاعة .. ولي كل مؤمن .. هذا الانسان الذى بلغ من العظمة الى هذه الدرجة «صلوات الله عليه» يتصاغر عند ذكر رسول الله «صلى الله عليه و آله» ويقول : «أنا عبد من عبيده» فاذن .. نحن أيضا اذا نظرنا إلى من هم فوقنا بمراتب الكمال لن نوجه نظرنا الى أنفسنا .. لن نوجه نظرنا الى من نعتقد انه دوننا .. نوجه نظرنا الى من هو فوقنا ونحاول اللحاق والتشبه به - طبعا - مهما نأتى من الأعمال والافعال الصالحة والخيرات كأنما هى حبة رمل ملقاة فى الدهناء بل فى رمال الدنيا - حبة رمل بالنسبة لما على الكرة الأرضية من الذرات - يعنى لو نظرنا الى علم جميع علماء الدنيا فى هذه الارض «أى أهل المشرق وأهل المغرب» ونقيسه بعلم الأمام علي «ع» يكون كأنه قطرة على منقار طائر من البحر المحيط ولا يوازى ! الانسان عليه كي يتخلص من العجب بالنسبة لأعمال الخير .. عليه أن ينظر الى من هو فوقه وان ينظر الى نفسه لو وصل الى ذلك المقام - هل يرضى أن ينسب اليه هذا العمل الحالي أو يستحى من نسبته اليه ؟

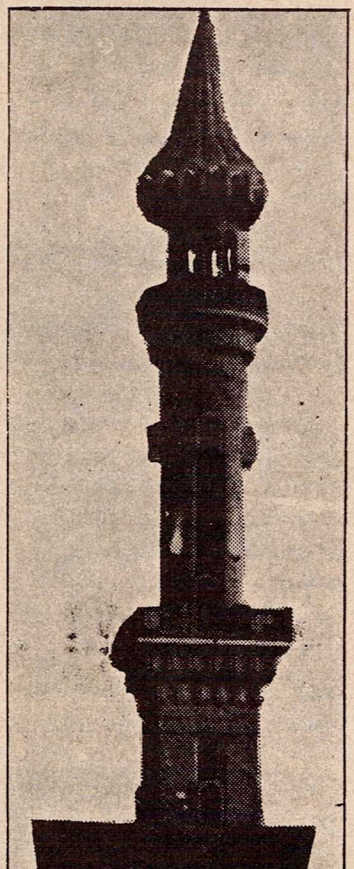

الدرس التاسع لفضيلة الشيخ سليمان المدني

لا شك أنه لو كان في منزلة أمير المؤمنين «عليه السلام» .. يستحي أن تنسب اليه هذه الصلاة التي يأتيها أو هذا العمل الخيري الذي يفعله الآن ! .. فإذن .. لا طريق الى محاربة العجب الا بهذه الطريقة وكذلك بالنسبة لما يبتلى به الانسان في الدنيا حتى يضمحل ذلك من نفسه حتى لا تؤثر على سلوكه الى الله .. وحتى لا يؤثر ما يفوته من لذائذ الدنيا على الله فليتذكر ما أعد للمشركين على أنفسهم بالآخرة «ليتذكر نار الآخرة» وغضب الله «سبحانه وتعالى» وعندئذ يكون لسعه أشد بالنسبة الى لسعة العقرب الى أذى الشوكة وهذا يعني انه لا قياس .. بينما الكوارث والمحن التي تحل بالانسان في الدنيا بالنسبة الى العذاب الأليم الذي يحصله المغضوب عليه من قبل الله «سبحانه وتعالى» في الآخرة لا يقاس بألم الشوكة وأذى لدغة العقرب ولا يمكن قياسه .. وهذا الذي سقناه قياس عن فارق . ولكن لابد من تقريبه الى الذهن لذلك والا باب القياس هنا منسد .. وعندئذ أيضا يضمحل من نفسه كل أذى وأي أثر لأي أذى يصيبه في الدنيا ، فاذا كان المؤمن يحصر غايته في الوصول الى الله وفي القرب به .. فعندئذ هذه الغاية غاية لا نهاية لها واذا كانت غاية لا نهاية لها فهو في كل يوم يرتقي في سلم القرب في كل يوم يتطور في طريق الوصول فيكون في هذه المرتبة يستحي من أعماله في المرتبة السابقة - لكن - عليه أيضا أن لا تعجبه أعماله وهو في تلك المرتبة بل ينظر الى من هم فوقه حتى يضمحل من ذهنه ذلك .

وأما اذا أعجبته حاله التي هو عليها فانه بالاضافة الى أنه يقف عن السلوك الى الله يقف به الطريق عن الوصول الى الله «سبحانه وتعالى» لا يستطيع أن يقول أنني سأبقى في هذه الدرجة بل أنه يرجع الى أحضان عدوه فان هذا العجب يأكل كل حسناته من حيث لا يشعر .. وكما أن على الانسان أن لا يستصغر عمل الخير .. عليه أن لا يعجب به ، وكما أن على الانسان أن لا يستصغر عمل الشر عليه ان لا يتباهى بانه لا يرتكب الكبائر أو انه لا يرتكب المعاصي أو يتباهى حتى على العصاة فان العاصي لو تاب وندم وآمن لمحيت عنه تلك المعصية وربما استأنف عملا جليلا خطيرا يكون عند الله أقرب من هذا الانسان المتباهي .

وأضرب لكم مثلا وهذه القصة رواها أحد العلماء «رحمه الله» وقد سمعتها منه .. يقول : انه في ليلة من الليالي رأى رؤية - رأى ان القيامة قد قامت وأن الناس عطاشى وهم يطلبون ماء .. ولكن لا يوجد الماء .. فأخبروا بان الماء يكون على هذه الجهة فانطلق كل أهل الموقع الى تلك الجهة التي أخبروا بأن الماء فيها .. فلما وصلوا الى ذلك المكان عارضهم سور رفيع لا يمكن النظر الى آخره وقيل لهم ان الماء خلف هذا السور فبهتوا جميعا .. كيف يمكنهم الوصول الى هذا الماء وقد حيل بينه وبينهم بهذا البنيان الذي لا يصل طرف العين الى نهايته حتى يدرك ارتفاعه ! فظلوا واقفين حائرين !

يقول فبينما نحن كذلك واذا بشخص من جيراننا أعرفه بارتكاب الكبائر .. بارتكاب المعاصي والموبقات واذا به يأتي ويقول :

شيخنا هل تريد الماء ؟

فقلت له : نعم .. كيف لا أريد الماء !

يقول : فحملني وألقى بي واذا انا على ذلك السور الرفيع !

يقول : فنظرت ووجدت غديرا كبيرا يمشي ولم أجد عنده الا شخص واحد هو الشيخ عبدالحسين الامين صاحب كتاب الغدير .

يقول : وكانت الملائكة واقفين فغضبت وثرت وقلت لهم بأي حق تحجزون كل هذا الماء من أجل رجل واحد والناس تموت عطشا ؟

فقالوا : يا شيخ هذا الماء مملوك ملكا شخصيا - هذا الغدير حفره عبدالحسين الأمين بيده وهو يملكه ولا حق لك فيه واذا كنت تريد الماء فلماذا لم تحفر لك غديرا ؟

يقول : فانتبهت وأول ما لفت نظره - كما يقول - في هذه القضية هو أن الذي أوصله الى هذا المستوى بان ينظر الى ما وراء السور هو هذا الشخص الذي يعرفه بارتكاب الكبائر والموبقات فكيف يكون هذا ؟

كيف يعجز العلماء والفقهاء وهذا الشخص الذي روى لي القصة من الفقهاء الكبار - ويأتي هذا العاصي المرتكب للكبائر ليحمل هذا الفقيه ويقذف به هناك !

يقول : مضت يومان أو ثلاثة وأنا أفكر في ذلك واذا في الليل بابي يطرق .. ففتحت الباب واذا بذلك العاصي قد أقبل !

قال : السلام عليكم قلت عليكم السلام ..

قال : مولانا أنني نويت التوبة لله من كل شيء وأنوي أن أذهب الى مكة حتى يغفر الله لي كل ذنوبي لما سمعته منكم من أن من يحج بيت الله الحرام يخرج من الحج كيوم ولدته أمه .. ولكن كل أموالي حرام .. فكيف أحج بها وثيابي أيضا لا أتيقن من حلية ثمنها فكيف أحج بها ؟ .. وأنا أريد منك أن تدفع لي من أموال الامام «عليه السلام» .. أو من مالك الخاص تبرعا نفقة حجة .. وأن تعطيني أيضا اما من مالك الخاص أو من أموال الامام «عليه السلام» ثمن ثياب الاحرام حتى يكون حجي كله من حلال !

يقول : تنبهت وعرفت تلك القضية فذهبت وأخرجت له المال وأعطيته ثمن الحجة وأعطيته ثمن الاحرام فذهب الى الحج وما أن رجع فاذا هي أيام قليلة فاذا به يموت ! فعلمت أن أعظم عمل عملته في حياتي بحيث يوصلني الى ذلك هو انقاذ هذا المسكين بحيث لا يحج بالمال الحرام أو يكشف وجهه عند غيري !

اذن هذا الانسان الذي كان في نظر صاحب الرؤية «رحمه الله» بهذا المستوى .. أنظروا كيف وصل ؟

انه تاب توبة نصوحة .. وعندما يتوب الانسان لا يبقى عليه شيء لأن في الرواية عن النبي «صلى الله عليه وآله» وعن أهل بيته «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» فعلى هذا لا ينبغي للانسان أن يتيه على العصاه أو أن يحقر العصاه .

بعض الناس مثلا يقول : ان هذا الانسان لا يستحق أن يعطى شربه من الماء لانه عاصي وهو لا يعلم انه بذلك العمل انه ينفر هذا العاصي من التوبة يدفعه الى البقاء في معصيته .. لانك ما لم تحسن اليه ويرى انك تدعو الى الاسلام بعملك وأخلاقك أكثر مما تنادي به بلسانك تبقى النفرة في قلبه !

ومن القضايا الواردة في هذا المجال أن أحد أنبياء بني اسرائيل في أيام النبي «داود عليه السلام» .. له جار عاصٍ لله .. فجاءه وهو جائع فقال له : اننى جائع أعطني طعاما !؟

فقال له : حتى تدخل في الاسلام وتشهد أن لا إله الا الله وأن داود رسول الله ..

فقال : لا أقول ذلك ولا أقبل هذا الشرط .. وانصرف !

فأوحى الله «سبحانه وتعالى» الى دواد «عليه السلام» وقال له : قل لفلان : «أننى أطعم هذا وأكسيه وأرزقه منذ أن خلقته وهو يكفر بي وما قلت أنني لا أعطيه لانه لا يؤمن بي فهذا فلان لماذا يشرط عليه هذا الشرط وهو يعلم انه جائع فلا يطعمه !» .

فجاء داود يطلب ذلك الشخص وأخبره فندم ذلك الشخص وأخذ يطلب جاره فلقيه .. فقال له تعال : لقد تركت شرطي !

فقال له : وما الذي دعاك الى ذلك ؟

فأخبره بقضية الوحي !

فقال : مادام دينكم يفعل هكذا فامدد يدك وقال : «أشهد أن لا إله الا الله» وآمن !

وبطبيعة الحال لولا أن قضية الوحي تداركت هذا الرجل لبقي ذلك الانسان على ضلاله لأجل ماذا ؟

لأجل لقمة من طعام !

فاذن لا ينبغي التيه أو الصلف على من نعرف منه الذنب حتى لو كان ذنبه كبيرا بل نأخذه باللطف والاحسان والموعظة الحسنة والخلق الجميل حتى نجره الى الطاعة اذا كنا من أهل الطاعة .. ولا ينبغي للانسان أن يستكبر عمله أو يستعظمه بل عليه أن يرى أنه أقل عباد الله عملا وأقلهم شأنا وانه في بداية سلوكه وانه يريد الترقي والتطور الى الله سبحانه وتعالى حتى يمكنه السير والوصول الى الدرجات العالية ..

هذا من ناحية العجب .. ونعود الى المحاضرة ..

قلنا أن القلب هو مركز العلم وهو مركز العزيمة وهو مركز الاخلاق الفاضلة والقلب هو أيضا مركز وسوسة الشيطان وهو مركز الاخلاق الفاسدة ومعنى الخلق لما نقول خلق ماذا نقصد بالخلق ؟ لقد تكررت هذه اللفظة كثيرا ؟!

الخلق معناه العادة الراسخة كيف تكون العادة الراسخة ؟

بعض العلماء يعبر عنها مثلا الطفل وهو يتعلم الكتابة فأول ما يعرف كتابة الحروف .. ثم الاسماء والكلمات ثم يعرف الجر بين الكلمات فاذا فرضنا انه تدرب على الكتابة شهر وشهرين وثلاثة أو سنة أو سنتين أو ثلاث ثم أخرج من المدرسة أو خرج وترك مزاولة الكتابة سنين «بقدر تلك السنين» تضمحل من نفسه حتى رسم الحروف .. كيف يرسمها فضلا عن عدم القدرة على الكتابة .. لماذا ؟ .. لأن الكتابة لم تصّر له عادة راسخة !

هو في مبدأ التدرب في مبدأ التمرين على الكتابة واما اذا زاول الكتابة سنة بعد سنة .. عشر سنين أو أكثر .. فلو فرضنا انه لم يحتج الى الكتابة ثلاث أو أربع سنوات ثم أراد أن يكتب فانه يكتب وبطبيعة الحال لا تكون كتابته في الجودة كما لو كان مواصلا ولم ينقطع أو مثل قبل انقطاعه عن الكتابة .. ولكن أصول الكتابة تبقى عنده لا تضمحل من نفسه .. لماذا ؟

لأن الكتابة صارت له عادة راسخة ولذلك نقول «الملا» وهكذا الطفل . فلو ولد طفل بين العرب وتعلم لغة العرب ولكن في السنة الثالثة أو الرابعة من عمره أخذ الى أمة اخرى وبقى سنين طويلة لا يشاهد فيها عربيا ليسمع منه كلام العرب ينسى تلك الألفاظ التى حفظها وهو صغير وتزول من نفسه طريقة النطق بالحروف العربية ويتحول لسانه الى لسان تلك الأمة التى تربي ونشأ فيها لان تلك اللغة لم تصّر عنده عادة راسخة مهيمنة في النفس .

أما لو عاش بمقدار عشر أو خمسة عشرة سنة بين أهله ثم انتقل الى أمة اخرى فانه مهما امتد به العمر لا تزول عنه القدرة على الكلام بلغته الأصلية وان كانت لغته تتقوقع وتضعف وينسى كثيرا من المفردات ومن قواعدها .. لكنها لا تزول كلية .. بل يتمكن من الكلام بها ولو بصورة ضعيفة .. لماذا ؟ لان الكلام بتلك اللغة صار عنده عادة راسخة صار «ملأ» ..

فالخلق هو الفعل الذى يصدر من الانسان بسهولة ويسر ولا يصدر الفعل عن الانسان بسهولة ويسر الا اذا كانت في نفسه هيئة معينة تستدعى صدور ذلك الفعل من دون روية أى من دون تأمل أو تفكير .. وجميع العادات الراسخة ، جميع الهيئات النفسانية التى تيسر لنا الأفعال بسهولة وبدون روية في بداية أمرها لا تحصل الا بالتكلف وبالتدريب ولا تحصل الا بالمشقة ولكن بالمثابرة تنقلب الى عادة راسخة وتصدر الأفعال المناسبة لها عنا بدون روية أو تفكير .

مثال ذلك : اللغة التي نتكلمها لم نحصل عليها اعتباطا وانما حصلنا عليها بتدريب شاق من أهلنا وتعويد ومحاكاة لأماد طويلة وسنين كثيرة حتى رسخت طريقها في أنفسنا ولذلك مهما تعلمنا من لغة اخرى لا يمكن أن توازيها في القوة والرسوخ لانها صادفت قلبا خاليا فتمكنت كما يقول الشاعر : «صادف قلبا خاليا فتمكنا» فجميع الاخلاق وهى الافعال .. والفعل اذا كان يصدر بسهولة ويسر ومن دون روية نسميه خلقا .. وهذا دائما يحتاج في البداية الى تكلف الى مشقة الى توطيد النفس وتدريبها عليه سواء في ذلك أفعال الخير أو أفعال الشر .. سواء في ذلك الاخلاق الحسنة والاخلاق القبيحة .

الآن يعنى الانسان النهم كيف صار أكولا بحيث يوصف بلفظة أكول التى هى من ألفاظ المبالغة لانه أخذ يأكل ويأكل ويمرض ولكنه لا يعير مرضه اهتماما وبمجرد ان يبرأ يعود فيأكل .. ويأكل ويأكل ويأكل فيمرض وهكذا الى أن صارت كثرة الأكل له عادة لا يبرأ منها في الاحوال العادية وكذلك مدمن التدخين ، كيف صار مدمنا للتدخين ؟ ..

في البداية كان يدخن القليل وأخذ يزداد ويزداد ويزداد حتى صار مدمنا للتدخين .. فاذن كل العادات حسنها وقبيحها لا تكون عادة راسخة الا بعد التكرار الطويل الأمد !

فالانسان وهو في طريق تحصيل الفضائل وفي طريق تحلية نفسه بها وفي طريق تخلية نفسه عن الرذائل وتخليص نفسه منها عليه ان لا ييأس لانه لم يمكن أن يحصل على العادة الراسخة في ذلك الشيء في فترة يسيرة بل عليه اذا كان جادا في الحصول على الملكات الفاضلة والتخلى عن الملكات الفاسدة عليه أن يجد وأن يجتهد وان لا يكل عن معاودة العمل مهما وقعت فيه من الاخطاء حتى يتمكن من تحصيل الملكات الفاضلة ومحو الملكات الفاسدة .. هذه هى الطريقة الوحيدة لتحصيل الخلق .. لأن الخلق ما هى الا تلك الملكات التي تصدر عنها الأفعال والا فان الأفعال في حد ذاتها لا تشكل خلقا وقد قلنا في محاضرة سابقة ليس كل من يعطى المال كريم ، وانما الكريم هو من يعطى المال لانه يحب اعطاء المال .. أما من يعطى المال لان له غاية في اعطاء المال .. فهذا لا يسمى كريما أو مثلا من يعطى المال لانه لا يقيم وزنا لقيمة المال فهو يسمى سفيها .. فاذن ليس كل من يعطى المال كريم وانما الكريم من يعطى المال لانه يحب اعطاء المال .

الكريم هو الذى يبذل الطعام لانه يحب ويلتذ ببذل الطعام .. يعنى يكون الفعل عنده بيسر وسهولة ومن دون روية بدون تأمل بدون تفكير وعندئذ نسمى هذا له خلقا .

والخلق في حد ذاته ليس الفعل ذاته - الفعل نتيجة الخلق سواء الفعل الصالح أو الفعل الطالح .. الخلق هو الملكة أو الهيئة النفسية الراسخة التى صدر عنها ذلك الفعل أما الفعل لو صدر بدون ملكة فلا يشكل خلقا ولذلك على سبيل المثال المعصية من المؤمن لا تشكل خلقا للمؤمن لأن خلق المؤمن الطاعة والمعصية لو صدرت عنه لا تكون صادرة عن ملكه في نفسه بدليل ندمه ودليل عزمه على العودة فاذن لا يستدل على أن هذا الفعل قد صار خلقا له - لا - انما خلقه هو الفعل الذى يصدر عنه بيسر وسهولة وبدون تكلف .

فمثلا انسان ديدّنه شرب الخمر أى مدمن لشرب الخمر وبالطبع هذا الشرب يشكل خلقا له وفي المقابل شخص آخر لا يشرب الخمر ولكنه جلس مع قوم خمارين في يوم من الأيام فاغروه ليشرب كأسا .. هل ان فعله صادر عن طبيعة أو ملكة فيه ؟

طبعا : لا !

هذا أغرى على الشرب أو أكره .. قيل له اما أن تشرب هذا الكأس واما أن نحبسك أو نقتلك فشرب .. فهل فعله يدل على ملكه - لا - طبعا لانه أكره ، ووسوس له الشيطان في يوم من الايام فاغراه فشرب .. هل ان شربه يدل على ملكة ؟ - طبعا : لا !

الملكة متى تكون ؟

لو كرر هذا الفعل مرارا وتكرارا بحيث صعب عليه الاقلاع وبحيث صار يشرب من دون تروى ومن حيث صار لا تؤنبه نفسه ولا يحصل عنده الندم على ذلك الفعل فيكون ذلك الفعل ناشئا عن طبع .. فاذن الطبع هو الخلق .. والفعل اذا كان ناشئا عن طبع نسميه خلقا .. تسمية «مجازية» التسمية الحقيقية لذلك الطبع .. كذلك الذى يصلى صلاة الليل مرة واحدة - نقول ان من شيمته صلاة الليل أى من طبيعته ان لا يترك صلاة الليل طبعا : لا ! من طبيعته ألا يترك صلاة الليل اذا كان لو اضطر الى تركها فكأنما قد أضاع شيئا صارت له طبيعة - عادة .. وبطبيعة الحال عندئذ نسمى ذلك له طبعا .. والطبع هو الخلق والفعل يكون نتيجة للخلق اذا كان صادرا عن ذلك الطبع بسهولة ويسر ..

كل الخلق يحتاج الى تدريب شاق الى تكرار العمل واعادته سواء من ناحية الفعل وهى المواظبة على الافعال الحسنة أو من ناحية الترك وهى الهروب عن الأفعال المستهجنة والمستفضحة ، فلا ييأس الانسان ان الشيطان لايزال يغلبه فيوقعه في المعصية تارة بعد اخرى بل عليه دائما أن يسعى الى تخليص نفسه ولا ييأس وليعن وليّه على عدوه .. من هو وليّه ؟

وليّه هو الله - الله في غير حاجة الى أن تعينه ولكن تعينه على نفسك أو تعين نفسك .. تطلب اعانة مولاك بطريقة عقائدية صحيحة أن تقول : «تطلب اعانة مولاك على عدوك» فان المولى هو الأولى بالتصرف «باللغة العربية» وطبعا الله سبحانه وتعالى هو الأولى بالتصرف في خلقه ، فهو الولى المطلق .. الولي الحق تطلب اعانته على عدوك وكلما غلبّك عدوك قمت لحربه ومجاهدته من جديد طالبا اعانة المولى ، فاذا علم المولى صدق نيتك واخلاصك فهو أكرم من أن يهملك ويتركك لعدوك يفترسك .

يقول الله «سبحانه وتعالى» : «من استكفى بي كفيته ومن استعان بي أعنته» .. فاذن الله سبحانه وتعالى اذا علم صدق نيتك بتكرار المجادلة بتكرار حرب هذا العدو لا يعقل انه «سبحانه وتعالى» يتركك وشأنك وقد توكلت عليه واستعنت به ولجأت اليه .

المهم انك فى مقام الحرب لا تنهزم .. فى مقام الحرب لا تيأس من النصر ، تحارب هذا العدو الذى أخذ على نفسه ان يقعد لك صراط الله المستقيم «ربي لما أغويتنى لا قعدن لهم صراطك المستقيم» .. هذا العدو الذى أصر وعزم على أن يهلكك ينبغى أن تجاهد أيضا فى ازالته متوكلا على مولاك لكن لا تيأس من رحمة الله .. بحيث انك ترى انه تصدر منك المعاصى الكثيرة وتقول «بأن قلبي قد تبلدته الملكات الفاسدة وسكنه الشيطان فانىّ لى باقتلاعه أو أنىّ لي أن أترك هذه الافعال» .. لا .. اذا أصررت على ذلك وعملت الأعمال المضادة التى تزيل تلك الأعمال السيئة لان الحسنات يذهبهن السيئات متكلا على الله سبحانه وتعالى فان الله يعينك هذا من ناحية الخلق .. والأخلاق لها مزايا هناك أخلاق سيئة وهناك أخلاق حسنة .. هناك أخلاق باطلة رديئة وهناك أخلاق فاضلة جميلة ومركز كل الاخلاق هو «قلب الانسان» كيف تنشأ الأخلاق الفاسدة ؟

مبدأ أو منشأ الاخلاق الفاسدة من الشهوة .. يقول النبي «ص» : «من وقىّ شر لقلقه وذبدبة وقبقبة فقد وقىّ» جمع «صلى الله عليه و آله» فى هذه الكلمة الوجيزة مبدأ جميع الشرور .. مبدأ جميع الأبواب التى يدخل منها الشيطان على الانسان ..

اللقلق : اللسان ..

الذبدب : الفرج ..

القبقب : البطن ..

ولو نظر الانسان فى جميع أفعاله التى يريد أن يفعلها من أمور الشهوات كلها تعود الى هذه الأمور الثلاثة : «اللسان ـ البطن ـ الفرج» .. أيها أخطر من غيرها ؟

أخطر ما فى الانسان بطنه فهو أخطر من لسانه وأخطر من فرجه .. يقول النبي «ص» : «ما ملىء وعاء شرا من البطن» .. ويقول «ص» : «المعدة بيت الداء والحمية هى الدواء» .. فكما ان جميع أمراض الجسم لو حللت تحليلا صحيحا تعود الى الاخلاق الفاسدة وهذه الاخلاق الفاسدة تعود بالتالى الى طريقة تغذية الجسم والدم المتولد عن تلك التغذية وبالتالى تعود الى البطن .. كذلك الامراض الروحية والعقلية لو حللها الانسان بعين البصيرة أيضا لوجدها تعود الى البطن .. فالأكثار من الطعام يزيد الانسان قوة أكثر مما يحتاج اليها فى تصريف شئونه اليومية فيندفع الى تفريغ تلك الطاقة بطرق اخرى ، لان تصريف شئونه اليومية لا تستوعب كل الطاقة التى جمعها فينهمك فى الشهوات .. أقرب الشهوات الى نفس الانسان ما هى ؟ النكاح .. فينهمك فيه .

تحصل له لذة شديدة لذلك فهو يحتاج الى الاستزادة من الأكل والى الاستزادة من هذه اللذة الجديدة فينصرف ويبقى تفكيره منصبا على جمع الأسباب التى تمهد له المأكولات والمذبوحات .. وما هى ؟ «هى المال» .. ينهمك فى طلب المال والانهماك فى طلب المال يوجد أشياء كثيرة «المنافسة التى تجلب التباغض والعداوة والحسد والحقد وتجلب حتى الجرائم الاخرى الخارجة عن حيز النفس» .. هذا المال يكسب الانسان قوة معنوية ويدخل فيه الغطرسة ـ الخيلاء ـ التكبر ـ حب السيطرة ـ حب الاستعلاء !

من أين جاء ؟

الأصل فيه هو البطن !

اذن : هل أن الجوع أفضل ؟

هكذا قال بعض العلماء الذين لا يأوون الى كلمات أهل البيت «عليهم السلام» !

من انهم يأخذون هذه الرواية «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه» .. فيقولون ان المؤمن يجب عليه أن يتحلى بالجوع خاصة اذا قارنا ذلك بروايات اخرى «ان أبغض ما يبغض الله من المؤمن أن يثقل بطنه بالأكل ومن كثر غشاؤه طال وقوفه يوم القيامة» الى غير ذلك ..

يعنى .. هذه تصلح ان تكون مؤيدات اذا أخذت بمفردها لذلك القول .. طبعا هذا الجوع فيه مضار يضعف الجسم عن تصريف الحياة اليومية لا تبقى عنده طاقة كما أن كثرة الأكل توجب الكسل وكثرة النوم .. ولاشك أن النوم نوع من الموت يذهب فيه الوقت بدون فائدة «الوقت الذى ينام فيه الانسان لا يستطيع أن يقوم فيه بعمل لا للدنيا ولا للآخرة» اللهم اذا كان نومه نية القربة الى الله يحصل ثواب على ذلك النوم وان كان لم ينو نية عند نومه ولم يقم بالوضوء فلهذا النوم ضائع .. وعن فوائد الأكل الكثير يقولون انه يذهب على الانسان مدة طويلة وكان عليه أن يقلل أكله حتى يكتفى فى جسمه بقليل من النوم حتى يكون شخصا ملكانيا .. كما ان الملائكة تأخذهم سنة فقط ويكتفون بها فاذا قل نوم الانسان يتشبه بالملائكة .. فاذن عليه ان يجيع نفسه !!؟

لا .. نقول لهم لا واذا نظرنا لكلمات أهل البيت عليهم السلام فهى لا تأمرنا باجاعة أنفسنا لان أيضا اجاعة النفس تفريط .. كما أن كثرة الأكل افراط .. فقلة الأكل وتركه وانقاص ما يحتاج الجسم منه تفريط والاعتدال هو الوسط .. فالمقصود هو أن يعتدل الانسان فى أكله لا يلجأ الى المخمصة فربما كانت المخمصة أضر من البطنة .. وكم من مخمصة قتلت صاحبها وان الله «سبحانه وتعالى» فى المخمصة يعذر حتى ارتكاب السرقة التى هى من الكبائر يعنى لو جاع انسان ولم يعطه أحد ما يسد جوعته واضطر فسرق طعاما فأكله وجاء صاحب الطعام فأقام عليه دعوى وتبين المقاضى «مثلا» اذا كان القاضى شرعيا «يحكم بالشريعة» أن هذا الانسان جائع فعلا وانه طلب من الناس ان يعطوه طعاما فلم يعطوه وانه أيضا أخبر صاحب الطعام بانه جائع فلم يعطه فعند ذلك هل القاضى يعاقب هذا الذى سرق ؟

يعاقب صاحب الطعام المسروق لانه ترك واجبا شرعيا فاذن لو كانت المخمصة مطلوبة عند الله «سبحانه وتعالى» لما كان يعذر صاحبها بارتكاب كبيرة ويعتبره انه لم يرتكب كبيرة .. كما ان الافراط مذموم عند الله كذلك التفريط مذموم عند الله «سبحانه وتعالى» الا ترى ان النبي «ص» انه حبذ الصوم لأمته فلما رأهم يصومون صيام الدهر يصومون طيلة العام .. نهاهم عن ذلك وأمرهم بصيام ثلاثة أيام فى كل شهر أو يومين فى كل أسبوع .. لماذا ؟

فلماذا جاءت الروايات بالنهى عن الأكل ولم تأت الروايات بالأمر به الا يحق لهم أن يشكلوا هذا الأشكال ؟

نقول : ان الله سبحانه وتعالى جبل الانسان على حب الطعام «خلقه مجبولا على ذلك» فهي طبيعة مركبة فيه بل ان هذه الغريزة مبعثها حب الذات حب البقاء فان الانسان باعتباره جسما ناميا لا يستقيم فى حياته الا بالأكل وغاية ما هناك ان هذه الغريزة وهى صماء عمياء لا تدرك الحدود لانه فرق بين سائر الحيوانات التى تشارك الانسان فى الغرائز والجبلات وبين الانسان .

الله سبحانه وتعالى جعل فى غرائز الحيوانات تحليلات طبيعية توجد مع تلك العزيزة فبمجرد أن يأكل الحيوان ما يكفى جسمه يمتنع عن الأكل تلقائيا .. لماذا ؟

لان قانونه الغرائزى محدد خلقة .. والانسان أكرمه الله «سبحانه وتعالى» بخصلتين لم يعطهما الحيوان هما العقل والارادة وأنزل عليه الشريعة حتى يعمل فيها بارادته جعل غريزته من دون تحليل وأنزل الشريعة ممكنا له أن يحدد غريزته بالشريعة فلذلك غريزة الانسان جبلته تستدعيه الى الاكثار والنهم والشره فى قضية الأكل ثم تأتى الشريعة تنهى عن الأكل تذم كثرة الأكل تجعل البطن «أشر وعاء يملأه ابن آدم» .. فبالجمع بين الطبع والشرع يحصل الاعتدال ولذلك يقول «عليه الصلاة والسلام» «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان ولابد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه .. فلو كانت المخمصة مطلوبة من الله «سبحانه وتعالى» لما كان النبى «ص» يقول «لقيمات يقمن صلبه» يعنى .. تجعله قادرا على تأدية ما يطلب منه فى هذه الحياة فكما ان كثرة الشبع توجبه إلى الكسل عن الطاعات وكما ان كثرة الشبع توجب منه الانهماك فى سائر الشهوات كذلك قلة الأكل تضعف جسمه عن القيام بالطاعات وعن تأدية سائر الواجبات الحياتية اما الاعتدال بحيث يتناول الانسان بمقدار ما يحتاجه جسمه من المأكل فهذا لا شك يكسر سائر الشهوات .. وفى نفس الوقت لا يعجزه عن القيام بسائر الواجبات ولذلك ورد عن المعصومين «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» .. فى آداب الأكل «ان لا تأكل حتى تشتهى الأكل وأن تقطع يدك عنه وأنت تشتهيه» .. لا تأكل حتى تشتهى وقم وانت تشتهى أى تنهى أكلك قبل أن يمتلىء الجوف فتذهب الشهوة وعبر الأئمة «عليهم السلام» .. هنا بالشهوة ولم يعبروا باللذة والحقيقة نحن نسميها فى لغتنا العادية بل حتى الحكماء يسمونها لذة .. لكن لما كانت فى حقيقتها ليست لذة وانما هى دواء لألم السؤال لم يسميها الامام «عليه السلام» لذة لانها فى حقيقتها ليست لذة هى دواء والانسان يأخذ من الدواء بمقدار ما يعالج الداء اما اذا ما أفرط الانسان فى تناول الدواء فانه يضر جسمه .

الأكل دواء لألم السؤال فاذا زاد منه الانسان أضر جسمه والمعدة كما قلنا «كما انها بيت» لأدواء الجسد هى كذلك «بيت لأدواء القلب» ..